

تاريخ الاستلام: 2025/01/15 تاريخ القبول: 2025/11/26 تاريخ النشر: 2025/12/25

محمد الأمين شرويك *

المركز الجامعي الشريف بوشوشة آفلو (الجزائر)

Email :m.cherouik@cu-aflou.edu.dz

المخلص :

تعتبر الزوايا من بين أهم الظواهر الاجتماعية الجديرة بالاهتمام نظير ما قدمته من خدمات جليلة للدين الإسلامي، وتشكيلها لمركب مهم للهوية السوسولوجية للمجتمع الجزائري بالرغم من تعالي الأصوات المقللة من شأنها ومن دورها التاريخي متناسين فضلها ومعتبرينها وسيلة للانحطاط والتخلف، إلا أنها تبقى تحافظ على وجودها واستمراريتها لتحافظ على مقومات هذا المجتمع أيام الحقبة الاستعمارية. ومن أجل القضاء على هذه المقاومة التي تزعمتها الطرق الصوفية والتحكم في سير المجتمع الجزائري، قام الفرنسيون بمواجهة هذه الطرق والتصدي لها مستعملين في ذلك طرق وأساليب متعددة لتشتيت صفوفها وتمزيق وحدتها والكشف عن أسرارها، سيما وأن البعض من الذين وهنت منهم العزائم وضعفت نفوسهم أمام ألوان الترهيب والترغيب التي مارسها الاحتلال ضدهم قد سقطوا في شركه وغدوا من خدامه ومن مبرري أفعاله الشنيعة ضد الأمة وتراثها.

الكلمات المفتاحية : المقاومة ، الصوفية ، الاستعمار ، الجزائر ، المواولة

Abstract:

The zawiyas are among the most significant social phenomena deserving attention, given the invaluable services they have provided to Islam and their role in shaping an essential component of the sociological identity of Algerian society. Despite the rising voices that belittle their value and historical role—disregarding their contributions and viewing them as a means of decline and backwardness—they continue to maintain their presence and perseverance, safeguarding the foundations of this society during the colonial era.

To suppress this resistance led by Sufi orders and to control the course of Algerian society, the French authorities confronted these orders using various methods and strategies to disperse their ranks, dismantle their unity, and uncover their secrets. This was particularly true as some individuals, whose resolve had weakened and spirits faltered under the various forms of intimidation and enticement employed by the colonial forces, succumbed to their influence and became collaborators, justifying the heinous actions of the occupiers against the nation and its heritage.

Keywords: Resistance, Sufism, Colonialism, Algeria, Loyalists.

المقدمة

ترتبط الطرق الصوفية ارتباطا وثيقا بالمجتمع الجزائري وتحظى بتأثير بالغ على بنيته الفكرية والثقافية كونها تشكل إحدى أهم المرجعيات الدينية لمجتمعنا من جهة، وأساس له بالغ الأثر في تكوين معالم الشخصية والهوية الوطنية الجزائرية من جهة أخرى واستمدت هذا التأثير من كونها أقدم المرجعيات الفكرية في المغرب العربي إذ تعود إلى القرن 14 ميلادي، ولعبها لدور كبير كمؤسسة دينية وثقافية واجتماعية وحتى عسكرية.

لقد تجذرت الزوايا والطرق الصوفية في بلدان المغرب العربي خاصة في أعماق المجتمع والدولة بحيث لا يمكن فهم الماضي دون استحضار هذا العنصر الحيوي، الذي ظل بمثابة نهر مسترسل يغذي باقي الحقول المعرفية الأخرى عبر روافد حية وقوية، مما يدفعنا إلى بلورة جزء كبير من قضاياها واهتماماته، خاصة في بلادنا التي اعتبرت بمثابة مستنبت لشيخوخ الزوايا ورجال التصوف وأهل المقامات والطرق. إذن بلغت الزوايا انتشارا كبيرا في الجزائر خلال القرن 19م، حيث بلغ عددها حوالي 349 زاوية منتشرة في شرق البلاد وغربها ومن شمالها إلى جنوبها؛ واشتهرت عدة طرق بكثير أتباعها ومريديها، مثل القادرية والطيبية والتيجانية والسنوسية والرحمانية وغيرها، وتباينت أدوارها واختلفت مواقفها وتأثيراتها على المجتمع الجزائري خلال القرن 19م.

وقد كان من الطبيعي أن يستجيب الجزائريون لمناادي الجهاد والمقاومة ضد الغزو الفرنسي بدافع التجاوب الوطني وروح المسؤولية الدينية والسياسية بعد استسلام السلطة العثمانية وهزيمة الجيش الرسمي فقامت الطرق الصوفية تدعوا إلى الجهاد والمقاومة، فكانوا سباقين إلى شحذ الهمم لرد الاستعمار الغاشم، فحفظوا بذلك على الشعب الجزائري دينه ولسانه، وفوتوا الفرصة على الفرنسيين الحاقدين

من أن يطمسوا معالم الشخصية الجزائرية وكانوا في الصفوف الأولى في ميدان الحرب والمعركة.

ولتقديم هذا العرض كان لابد الانطلاق من إشكالية رئيسية تتمحور أساسا حول:
إن التمييز بين صنفين من الطرق الصوفية، صنف قاوم الاحتلال بكل بسالة إلى أن استنفذ كل إمكانياته في المقاومة يدفعنا إلى التساؤل عن الدوافع والأسباب التي جعلته يختار هذا النهج؟ وما هي الأساليب والوسائل التي استعملها في المقاومة؟ وما هي النتائج التي حققها في سبيل ذلك؟

والصنف الثاني الذي اختار الموالاة نهجا له وارتقى في أحضان المستعمر وتحالف معه، هو الآخر يدفعنا للتساؤل عن الأسباب التي دفعته لذلك؟ وكيف تميزت علاقته سواء بالاحتلال الفرنسي أو علاقته بالصنف الأول من الطرق الصوفية المقاومة؟ خاصة إذا علمنا أن هذه العلاقة كانت متناقضة في الأهداف والغايات.
كيف نفسر استراتيجية الطرق الصوفية مع مطلع القرن العشرين من نبذ أسلوب المقاومة وانتهج أسلوب المهادنة؟

أما بالنسبة لمعالجة هذا البحث التاريخي فقد تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي من خلال جمع الأحداث ثم عرضها ومن ثم مقارنتها بمختلف الدراسات التي تناولت الموضوع بغية الوصول إلى مقارنة موضوعية وفق رؤية علمية نزيهة للأحكام الصادرة بشأن الطرق الصوفية، وتم اعتماد وسائل إيضاح كلما دعت الضرورة إلى ذلك بهدف تسهيل تتبع سيرورة أحداث الموضوع ورصد صورة واضحة عن محتوى البحث مع التركيز على النصوص المستقاة من المصادر المتعلقة بالموضوع محاولين استقراءها وتحليلها وتوظيفها آخذين بعين الاعتبار طبيعة الموضوع وواقع بيئة الفترة المدروسة.

إن طرح موضوع ثنائية مواقف الطرق الصوفية بين المقاومة والموالة للاستعمار الفرنسي بشكل مفصل ومععمق، كان من منطلق أن جل الدراسات التاريخية الجزائرية السابقة تناولت هذا الموضوع بشكل عام حسب علمنا، ضمن مواضيع أخرى اختصت بدراسة ظاهرة الاستعمار الفرنسي وحركة المقاومة الجزائرية، والتي تناولت موضوع مقاومة الطرق الصوفية كجزئية مكملية لمواضيع رئيسية، كالتى تتطرق لمواضيع المقاومات الشعبية.

2. الطرق الصوفية والصدمة الاستعمارية بين ثنائية المقاومة والموالة خلال القرن التاسع عشر:

لقد سقطت السلطة المركزية (العثمانية) وفضل جهازها التنفيذي الرحيل تاركا وراءه المجتمع الجزائري تتقاسمه وحدات نفوذية قائمة على القبلية والطرقية والعائلات الأرستقراطية، حيث نجد على رأس كل وحدة شيخ عادة ما يستمد نفوذه من قوة وحجم تلك القبيلة أو الطريقة—وهو الغالب—من مكانته الدينية كمرباط أو شيخ زاوية لطريقة ما.

هذا الواقع جعل من الطرق الصوفية تتجذر أكثر من أي وقت مضى وتسيطر على الحياة اليومية للأفراد والجماعات وأن يمتد نفوذها في معظم الأحيان إلى خارج إطار القبيلة لتنصهر في بوتقتها أكثر من حيز جغرافي معين ويتجسد هذا القول في الطريقة التجانية (التمساني، 1997-1998، ص 156)، فجاءت مقاومتها للاحتلال الفرنسي على هذا النسق متناقضة ومعاكسة للاتجاه الصحيح ومستقلة من حيث الزمان والمكان فيما بينها.

وهذه المواقف المتفاوتة بين الطرق الصوفية نتج عنها ارتباك في بنية البعض منها، فمنها من قاد الانتفاضات وقاوم الوضع الجديد ومنها من بدأ يتلاشى ويتأكل. وهنا لا بد من الإشارة إلى قول "مرسيل أمريت" (Marcel Emerit): «أنه في زمن الأمير عبد القادر لم يكن الضباط الفرنسيون يعرفون الطرق الدينية معرفة جيدة،

وكانت تقاريرهم حافلة بكثير من الغموض الغريب ولكن في مرحلة لاحقة درست هذه الطرق بشكل أفضل، ومع ذلك فإن الإداريين الذين لاحظوها عن قرب كانوا يميلون دوماً إلى تصنيفها بحسب الموالاتة لفرنسا أو عداؤها لها، وكأن مواقفها السياسية لا تتطور أبداً!..» (مرسيل، 2014، ص 289)

1.2 نموذج المقاومة:

بحث الجماهير الشعبية عن قوى تقودها لمواجهة العدو الفرنسي المتفوق عسكرياً فلم تجد سوى زعماء الطرق الصوفية الذين كان الشعب يعتبرهم رجال دين أتقياء ورعين همهم الوحيد خدمة الإسلام حيث نهضت قيادة المرابطين والطرق الصوفية بدور ريادي في مواجهة الاحتلال الفرنسي بعدما تخاذلت السلطة الزمنية آنذاك ممثلة في القيادة العثمانية وحلفائها، وقد كان الواجب الديني يحث على رفع راية الجهاد ضد الغزاة، فكانت بذلك بداية المقاومات في مرحلتها الأولى ما بين 1830 و 1848م والتي تولاهم زعماء معروفون ورجال ثوار من أمثال: ابن زعموم بمتيجة (سعد الله أ.، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الاحتلال"، 1982 ص 20، 19)، والأغا محي الدين بن مبارك القلعي والحاج السعدي في العاصمة وغيرهم... لتخرج المقاومة الشعبية الراضية للاحتلال في إرادة جماعية تلقائية لم تكن في حاجة إلى زعامة ما دام الشعور الوطني متأججا يزكيه في ذلك الدين الذي يدعوا إلى الجهاد دفاعاً عن الإسلام والوطن حيث قام شيوخ الطرق الصوفية ورجال الدين بدور كبير في الكفاح ضد الاستعمار ومقاومة حملات الغزو فقد قاد هؤلاء الشيوخ ومقدمي الطرق الصوفية كالقادرية والرحمانية والسنوسية والدرقاوية والشيخية والطيبية جل المقاومات التي ثارت ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر. وهو المبدأ الذي أنهض الشيخ محي الدين وابنه الأمير عبد القادر والذي يستند إلى الدفاع عن دار الإسلام ومجاهدة الكفار. (بورنان، 2015 ص 53-56)

لقد برز نشاط الطريقة القادرية إلى جانب المقاومة الشعبية بالتفاف إخوان الطريقة القادرية من حول الأمير عبد القادر لمكانته المعتبرة في كل الغرب الجزائري (Bessaih, 2010, p 7)، الذي بدأ حركة جهاده ببسط نفوذه على مختلف القبائل وإخضاعها له حتى يواجه الغزاة الفرنسيين بجمهة قوية، حيث كان يطمح إلى بناء دولة حديثة قائمة على مؤسسات شرعية تنصهر فيها جميع الوحدات القبلية والدينية، على غرار ما هي عليه الدول الحديثة وكلفه ذلك جهود كبيرة لأن أكثر القبائل كانت متعودة على حياة الاستقلال والنفور من الخضوع لسلطة مركزية وحتى يكون في موقف قوي فإن الأمير عبد القادر قد اعتمد في مجابهة الفرنسيين على الوازع الديني حتى يستميلهم إليه ويكسب تأييدهم في كفاحه وجهاده واتخذ من مدينة معسكر عاصمة له ثم راح يبذل المحاولات ليقطع على الفرنسيين خطوط التموين إلى مراكزهم بوهران، وانتزع منهم كثيرا من القبائل التي كانت قد تحالفت معهم وخضعت لسلطتهم، كما استولى على ميناء أرزيو الساحلي ليتمكن عن طريقه من الاتصال بالعالم الخارجي لكسب مواقف تؤيده على المقاومة، وللحصول أيضا على الأسلحة اللازمة والمؤن الضرورية، غير أن العسكريين الفرنسيين تفتنوا إلى خطة الأمير وعمدوا إلى استعادة مدينة أرزيو منه، في حين تمكن هو من افتكاك مدينة تلمسان منهم وشدّد الحصار على مدينة مستغانم. هذه الانتصارات المتوالية اضطرت الجنرال "ديمشال" حاكم وهران إلى عقد هدنة مع الأمير في 28 فيفري 1834م عرفت بمعاهدة "دي مشال" حيث اعترفت فرنسا بموجها للأمير بما تحت يده من مقاطعات.

وإزاء هذا التقدم العظيم الذي حصل عليه الأمير في الميدان العسكري أضاف إلى انتصاراته العسكرية انتصارا سياسيا تمثل في معاهدة الصلح التي عقدها مع الفرنسيين، والمعروفة بـ "معاهدة التافنة"، والتي اعترفت فيها فرنسا بسيادة الأمير

على مقاطعتي وهران وأرزيو ومستغانم في الغرب أي حوالي ثلاثة أرباع الجزائر.
(بورنان، 2015 ص58)

ولم يمهل الفرنسيون الأمير كثيرا ونقضوا الصلح وتجددت الحرب بين الفريقين وتعقب الفرنسيون الأمير واستعادوا سيطرتهم على بعض المناطق بعد ارتكاب مجازر فظيعة على يد الجنرال "بيجو" (*Bugeaud*) تحت غطاء ما سمي بـ (الأرض المحروقة) للقضاء على مقاومة الأمير عبد القادر.

هذه الفلسفة جعلت الجنرال "بيجو" يصرح بقوله: « ..الحرب مستمرة ومنذ قدومي إلى الجزائر لم أحظ بانتصار واحد على الأمير عبد القادر، هل تعلمون أين تكمن قوته..إنها في إيمانه بأنه صاحب حق...». (الحسني، 2002 ص161)

وهكذا وأمام مطاردة العدو له واستشهاد أشهر قاداته وتنفض من حوله العديد من القبائل وتحمل ضده السلاح، لينته أخيرا محاربا من طرف سلطان المغرب، فأصبح الأمير في وضع لا يحسد عليه، ولم يعد بمقدوره مواصلة الحرب فجمع مساعديه واستشارهم بشأن وقف القتال الذي لم يعد متكافئا، وعليه اتصل الأمير بحاكم وهران "لامورسيير" (*Lamoricière*) واتفق معه على شروط لوقف الحرب والتي منها السماح له ولأهله بالهجرة إلى المشرق. (محمد بن عبد القادر، 1903 ص 498، 499)

لقد مثلت مقاومة الأمير عبد القادر نموذجا استثنائيا فيما يتعلق بظاهرة الثنائية الروحية والزمينية في قيادة المقاومة، لأنه نجح في الجمع بين الزعامتين عندما تلقب بأمير المؤمنين (قنان، 1993 ص105) وأصبح بذلك القائد الروحي والسياسي والعسكري للمقاومة (دركوش، 2010/2011 ص77)، وقد كان توقف مقاومة الأمير سببا في إشعال فتيل العديد من الثورات عبر مختلف مناطق الوطن، وكانت كلها كما أشرنا من تحضير وقيادة الطرق الصوفية وشيوخ الزوايا ومريديهم.

لقد كان الأمير أكثر من قائد سياسي ورجل دين وهذا ما جعل "جاك بيرك" يقول عنه: «..إنه يحرك مبدأ الوطنيات الرومنطيكوي ويجمع في شخصيته الفروسية البدوية وإلهام الإسلام ودنيا ملكية القرن 19م..» (عمورة، 2002 ص140)، كما استعان بالعقلية الدينية السائدة آنذاك لمواجهة الفرنسيين الذين كانوا يراهنون على فشل العرب في تنظيم أنفسهم في جبهة واحدة لمقاومتها. (براني، 2016 ص330) كما حاول الأمير تجسيد روح المقاومة من خلال إبراز قوة عقائدها وثوابتها التي تصنع قناعاتها الإيديولوجية الإسلامية الذي حفظته الزوايا وتعهده شيوخها، مما ساهم في ميلاد اليقظة السياسية وتبدين المقاومة وإضفاء طابع القداسة على حركات المقاومات الشعبية ضد الفرنسيين الغزاة.

إذن فإن مفهوم الجهاد هنا هو الدعوة التي أطلقها قائد الأمة الجزائرية مخاطبا المشاعر الدينية من أجل الدفاع عن القيم والأرض.

2.2 نموذج المهادنة والموالاة:

برهنت هذه الطرق الصوفية على فعاليتها ومساهمتها في تدعيم وقيادة الانتفاضات الشعبية وهو ما أكدته لاحقا التقارير والدراسات الفرنسية حول خطورة هذه التنظيمات حيث يشير أحد الضباط الفرنسيين وهو النقيب "دونوفو" (*Deneven*) قائلا: «..إن الزوايا هي مراكز للتأمر وإشعال فتيل التمرد وهي معادية للوجود الفرنسي وتحظى بكثير من الاحترام بين الأهالي..»، ويضيف قائلا: «..إن تجمعات الإخوان هي هيئات يكون أعضائها هيكلا مترابطا تم تشكيله من قبل، تسكنه طاقة هائلة وتدفعه إدارة واحدة تجعله يتحرك بطريقة جماعية..» (ولد خليفة، 2007 ص60)، ويبدوا أن فروعاً من الدرقاوية ومن الرحمانية قد حبزت المحافظة على دورها التقليدي أيضا كالاتبعاد عن السياسة والاكتفاء بدور الوسيط (إصلاح ذات البين) مثل موقف الشيخ العربي بن عطية "الدرقاوي" في الونشريس، وموقف الشيخ علي بن عمر "الرحماني" في طولقة ليتوفى هذا الأخير سنة 1843م وهو يحاول

التوفيق بين المتنافسين ابن قانة وفرحات بن سعيد. (سعد الله أ.، الحركة الوطنية الجزائرية، 2015 ص299)

لكن هل يمكننا اعتبار أن كل الطرق الصوفية كانت على موقف واحد من الاحتلال الفرنسي؟

إن هذا ما لا يمكننا القول به لانعدام الأدلة -في حدود ما اطلعنا عليه- إلا أنه يمكن اعتبار تلك المواقف من الأهمية بمكان تبعا للدور الذي اضطلعت به الطريقة التجانية والتي كانت صادرة من بعض مشايخها خاصة إذا أخذنا بالاعتبار تلك الاتصالات المكثفة برموز الاحتلال الفرنسي والتنسيق معهم، وإبداء الاستعداد بكل ما من شأنه أن يسهل عليهم عمليات الغزو لباقي مناطق الجزائر. ويتجسد هذا القول في الطريقة التجانية (التلمساني، 1997-1998 ص156)، فجاءت مقاومتها للاحتلال الفرنسي على هذا النسق متناقضة ومعاكسة للاتجاه الصحيح ومستقلة من حيث الزمان والمكان فيما بينها.

ومن أجل فهم موقف الطريقة التجانية من الاحتلال والمقاومة (موقفها من الأمير عبد القادر) كان لابد من الوقوف على الصراع الذي فرض عليها من لدن السلطة العثمانية في نهاية عهدها، حيث أجبر مؤسسها الشيخ أحمد التجاني إلى الهجرة إلى فاس فرارا من قمع الأتراك، حيث وقعت عدة مصادمات بين الطرفين كان أبرزها ذلك الذي وقع بين قوات الباي حسن (بايلك الغرب) وأتباع التجانية سنة 1827م والذي انتهى بقتل الكثير من أتباع التجانية، وفي مقدمتهم "محمد الكبير" ابن الشيخ أحمد التجاني (Esterhayz, 1840 p224)، هذا الانهزام جعل من التجانيين -محمد الصغير- فيما بعد يعتمدون أسلوب السياسة والمسالمة والمهادنة لا المواجهة العسكرية مع السلطة، وإننا نذكر هذه الأحداث السياسية والعسكرية وعلاقة التجانية بالسلطة لنفهم بعد ذلك ما قد قيل عن رفض التجانية للمقاومة ضد

الفرنسيين، ومن أنه رفض يقوم على أساس مبدئي وهو تفضيل التصوف والسكون على الجهاد والحركة، وقد استغل الفرنسيون هذا الموقف أقصى حدود الاستغلال، رغم أنه لم يكن منسجما مع موقف التجانية من النظام العثماني ولا مع موقفها في إفريقيا الغربية. (سعد الله أ.، 2015 ص194)

إذن في ظل هذه التحولات أصبحت الزاوية التجانية تبحث لنفسها عن موقع أفضل في ظل الوضع الجديد، يخلصها من الصراعات ويمنح شيوخها فرصة للتفرغ للجوانب الروحية ونشر الطريقة التجانية بمد نفوذها نحو المناطق الحيوية، وهذا لا يتأتى في نظرهم إلا بمسألة سلطة الاحتلال بتفادي كل ما من شأنه أن يدخلها في علاقات عدائية معها وفي هذا الإطار يندرج موقفها من الأمير عبد القادر، وخلال (1830-1844م) كانت الطريقة التجانية تظن أنه باستطاعتها أن تبقى على الحياد في معركة جند لها العدو كل سلاحه. (التلمساني، 1997-1998 ص198)

لقد وقفت التجانية موقف الإيجاب تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر واعتبر زعمائها الروحيون أن هذا الاحتلال بلاء من الله قهر به الحكام المستبدين الذين نشروا الفساد، وأن الله تعالى قدر تغلبهم على المسلمين في هذه الساعة ولا مغير لحكم الله بل علينا الاقتناع بهذا إلى أن يقضي الله أمره. (Rinn, 1891p 427) « إن الله الذي أعطى الجزائر للفرنسيين وكل الأوطان التي تنتهي إليها فهو الذي يحيي سيظرتهم فلتبقوا إذن في سلم ولا تطلقوا النار عليهم، فقد غير الله أسيادكم السابقين الذين لم يكن لديهم قوانين أخرى إلا القهر ولا قاعدة أخرى سوى العنف، والذين كانوا يقومون بالأعمال الشريرة فلتتركوا الآخرين يفعلون ما يريدون وإن كانوا كفارا فإنهم قد أخذوا طريق العمل والحكمة الذي باستطاعته أن يعود على الجميع بالخير...» (Rinn, 1891p 427)

وبهذا الموقف يكون التجانيون قد برروا موقفهم المسالم بالقضاء والقدر، هذا التبرير وإن كان وجد تقبلا من طرف أتباع التجانية واستغلته الطرق الأخرى لكسب

ود السلطة الاستعمارية مثل الطريقة الطيبية إلا أنه لم يكن على الإطلاق حال غالبية الجزائريين -وما عدد تلك الثورات وإن جاءت مفككة وغير موحدة- إلا دليل على رفض الاحتلال الفرنسي. (التلمساني، 1997-1998 ص 198)

يذكر الباحث بن يوسف التلمساني من أن الطريقة التجانية عملت على تهيئة الظروف أمام التوسعات الفرنسية في منطقة الجنوب، فقد ساعدت الاستعمار على احتلال منطقة بسكرة في سنة 1844م والأغواط كذلك من نفس السنة. ويضيف عند تناوله لهذا الموضوع أيضا من أن الصراع الطرقي والقبلي الذي شهدته المنطقة كان له تأثيره السلبي المباشر على احتلال الأغواط، وجعلها قاعدة استراتيجية للتوسع الفرنسي في الجنوب، ذلك أن القوى والإمكانات المادية والمعنوية للمنطقة قد أهدرت بفعل الصراع الذي نشب ما بين (1838-1842م) وجعل المنطقة مجالا خصبا ومهيا للاستعمار (Arnaud, 1864,p452)

ويبرر "دونوفو" (De-Neveu) هذا الموقف بقوله: «...ربما دون الاعتداءات العديدة والمتكررة ضد أحمد التجاني وحرب الأمير عبد القادر غير العادلة إذا لانتهج سلوكا مناقضا..» (De Neveu, 1913,p110)، ولهذا السبب نجد الفرنسيين يركزون نشاطهم على زاوية عين ماضي واتضح ذلك من خلال الزيارات المستمرة للزاوية ومحاولة كسبها إلى جانبهم. (التلمساني، 1997-1998، ص 222)، لكن تبقى هذه المبررات غير كافية لتبرير هذا الموقف السلبي. فقد عبر أهالي الأغواط عن موقفهم الرافض للاستعمار برفعهم لواء المقاومة رغم سياسة المهادنة التي نادى بها الشيخ محمد الصغير التجاني، ووقفوا في وجه قوات الجنرالات يوسف وبيلسي والأدميرول وقوات القوم من أبناء جلدتهم بقيادة "سي حمزة" خليفة أولاد سيدي الشيخ وسي الشريف بالأحرش، ولم يتمكن الفرنسيون من احتلال الأغواط في بداية ديسمبر إلا بعد أن ارتكبوا مجازر كبيرة في حق سكانها. (التلمساني، 1997-1998، ص 226).

وللأمانة التي يجب ذكرها على أنها حقيقة تاريخية ثابتة وهو أن قادة ثورة أولاد سيدي الشيخ بعد إدراكهم لضرورة توحيد جهود القبائل والمناطق أرسلوا رسلهم من أمثال سي لعلا وسي قدور بن حمزة والشيخ بن الطيب إلى نواحي الأغواط وأولاد نايل بالجلفة واتصلوا بالزاوية التجانية لما لها من تأثير روحي حتى في أوساط أولاد سيدي الشيخ أنفسهم، (ben bakeur, 1990,p219) وبالفعل استجابة الطريقة التجانية وشيخها "أحمد عمار" للانضمام إليهم وتم وضع خطة تقوم على استغلال النفوذ الروحي لزاوية عين ماضي، إضافة إلى علاقتها بالسلطة الفرنسية للحصول على البارود، هذا التحالف الذي اكتشفته لاحقا السلطات الاستعمارية أين قامت باعتقال "أحمد عمار" ونقله إلى الجزائر العاصمة، بينما ترك أخوه "سي البشير" في عين ماضي، أما بقية المتعاونين فقد اعتقلوا في بعض مراكز الشمال.

3. حالة الطرق الصوفية نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:

حورب الأئمة وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية حيث توجهت أنظار أولئك الخبراء من (علماء النفس والأنثروبولوجيا والأديان واللغات..إلخ) إلى دراسة الطرق الصوفية ومحاولة تحييدها بوسائل عديدة كشراء الذمم وتولية الوظائف الدنيوية، وفرضت عليهم وعلى أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة ونفي الكثير منهم، ليتراجع نفوذ الطرق الصوفية وتصبح خاضعة إراديا أحيانا وغير إراديا أحيانا أخرى في ركب الاستعمار، ولعل أبرز ظاهرة ميزت هذه الفترة هي اختفاء الروح الجهادية عند هذه الطرق التي أصبحت في الواقع أدوات لتنفيذ أوامر ورغبات الاستعمار في تخدير الشعب وتأييد السياسة الاستعمارية. (سعد الله أ.، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 1996 ص 18)

ولكي نفسر بموضوعية سبب تراجع الطرق الصوفية عن مبدأ المقاومة كان لابد من أن نتعرض لما لاقته هذه الطرق وشيوخها، فعلى سبيل المثال لا الحصر وبعد ثورة المقراني اضطهد الفرنسيون الطريقة الرحمانية وطاردوا مقدميها، فغيرت من نهجها

الجهادي وانصرفت إلى التعليم وتركت السياسة ظاهريا لكن هذا لم يمنع البعض من مقدمها من ممارسة العمل السياسي.

1.3 التجانية:

والتي كان لها ماضي في العمل السياسي منذ الخلاف الذي وقع بين الطريقة والأمير عبد القادر، ولكن بعد انضمامها إلى ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة 1869م قام الفرنسيون بنقل شيخها أحمد عمار التجاني (الحبيب) إلى العاصمة ليبقى مدة سنة كاملة تحت الإقامة الجبرية، بتهمة الانضمام والتعاون مع ثوار أولاد سيدي الشيخ في 01/02/1869م وبإيعاز من السلطات الفرنسية سافر إلى فرنسا لرفع معنويات الجزائريين المشاركين في الحرب ضد ألمانيا وإبلاغهم تحيات أعيان الجزائر، وفي الوقت نفسه رأى أحمد عمار من أن هذه المهمة هي فرصة لكسب ود فرنسا من جديد، وكانت هذه الأخيرة تسعى من ورائه إلى احتواء وتدجين زاوية عين ماضي، وأثناء سفر أحمد عمار إلى فرنسا تزوج من فرنسية تدعى "أوريلي بيكار" في إطار خطة دبرها الفرنسيون مسبقا، وأعادته الفرنسيون إلى الجزائر بعد أن ضمنوا ولاءه، لكنه فقد قوة تأثيره في الناس وهو على رأس هذه الطريقة التي تعتبر أكبر الطرق الصوفية في الجزائر وخارجها وعندما مات سنة 1897م أقام له الفرنسيون جنازة كبيرة بالعاصمة حضرها الحاكم العام "جول كامبون" (Jules Cambon) الذي أشاد بالعلاقات الوطيدة بين التجانية والحكومة الفرنسية. (سعدي، 2013 ص 625)

وهكذا تمكن الفرنسيون من السيطرة على التجانية فاستعملوها ضد الجامعة الإسلامية التي كانت السنوسية من دعايتها، كما استعملوها ضد القادرية ذات الامتداد الكبير خارج الجزائر، ومنذ 1881م استعمل الفرنسيون التجانية في غدامس وإفريقيا السوداء؛ إذ أرسل قادة التجانية رسائل توصية إلى خلفاء الطريقة يحثونهم على التعاون مع الفرنسيين، وفتح أراضيهم للتجارة وإبرام علاقات تجارية

من شأنها أن تعود على الجميع بالفائدة، إذ جاء في أحد الرسائل الموقعة من أحمد التجاني بن محمد بن أحمد بتاريخ 08 ذي الحجة 1299هـ/الموافق لـ 21 أكتوبر 1882م جاء فيها: «...إننا ننعم بالسلام في ظل الحكم الفرنسي وإننا نعلمكم أن أحد الفرنسيين ومرافقين له سيحلون ببلادكم هدفه أن يزور جهتكم ويعقد معكم علاقات تجارية نرجوا أن تسهلوا مأموريته، وأن الحكومة الفرنسية قدمت لنا الكثير..» (Rinn, 1891 p 436-439)، هذه البعثة كان يقودها الضابط "فلاترز" سنة 1881م الذي تم اغتياله رفقة المقدم التجاني "عبد القادر بن حميدة" الذي كان دليلا لهذه البعثة.

ويعلق الباحث أبو القاسم سعد الله رحمه الله على الوضع العام للطريقة للتجانية فيقول: « إن إخوان التجانية لم يكونوا كلهم على دين ملوكهم، فقد كانوا كالمواطنين الآخرين يشاركون في الثورات وكانوا يعيشون بالعلم ويتقاسمون مع غيرهم المصائر البائسة والسارة، وفيهم من التحق بتونس والمشرق، ولم يكن زعماء التجانية بالمغرب على هوى بعض زعمائها في الجزائر، ولكن للجهل دولة وسلطان وللاستعمار جولة وصولجان..». (سعد الله أ.، الحركة الوطنية الجزائرية، 2015 ص 337)

2.3 السنوسية:

أما السنوسية فبقيت إلى حد كبير متماسكة بسبب وجود قياداتها الفاعلة خارج الجزائر، إذ لم يمنع صاحب الطريقة محمد بن علي السنوسي من دعم الثورات الشعبية التي قامت في الجزائر دعما ماديا ومعنويا فكانت لها علاقة بثورات مثل ثورة الشريف محمد بن عبد الله الذي كان قد التقى بالسنوسي في مكة ونسق معه على الرجوع إلى الجزائر، وكتب السنوسي إلى أهل الطرق الصوفية والمؤيدين له يطلب منهم دعم حركة هذا الشريف إضافة إلى دعم ثورة بوعمامة، ويسجل هذا الدور تلك الكتابات الفرنسية إذ يقول أحدهم وهو "لويس فنيون": « أن أتباع السنوسية مستعدون لتنفيذ الاغتيالات والقيام بالثورات، ثم إن عدد ما واجهه الفرنسيون من

أتباع السنوسية منذ عام 1852م تاريخ الهجوم على الأغواط من قبل الشريف محمد بن عبد الله صديق السنوسي، وكذلك مبعوثي السنوسي سنوات 1879، 1881، 1880م ووجود شخصيات منها في ثورة أولاد سيدي الشيخ واغتيال بعثة "فلاترز" 1881م.. إلخ « هذا بالنسبة للجزائر، أما بالنسبة لدور السنوسية في تونس والسنغال وغيرهما فهناك قائمة أيضا من الثورات والاعتيالات حسب لويس فنيون. (سعد الله أ.، 2015 ص262)

وأيضا وصفها باحث آخر "ني نابليون" (*Ney Napoléon*) ضمن تحليله من أن الطريقة السنوسية بطرابلس بالعدو الذي لا يقبل المساومة في الهيمنة الفرنسية بشمال إفريقيا.. لقد وجدنا يد طريقتة في كل جرائم المسافرين خلال السنوات الأخيرة، حيث أن لهذا الأخير أمثلة عن أعمال مهدي السنوسية ضد المهمات الفرنسية بالصحراء الجزائرية، كما اعتبره أيضا مسؤولا عن الانتفاضة الأخيرة لأولاد سيدي الشيخ التي وصفها بالقبيلة الدينية القوية جنوب مقاطعة وهران في 1879م، واعتبر المتسبب فيها حسب زعمه هم مبعوثي السنوسي في حين أن محركها كان بوعمامة مشيرا على أنه كان مقدما لزاوية سنوسية قبل رفعه لواء الثورة ضد الفرنسيين. (Napoléon, 1890 p33)

وظلت أسرة بن طكوك في مستغانم محافظة على الطريقة السنوسية بالجزائر منذ 1859م على يد الشيخ الشارف ولد الجيلالي عبد الله بن طكوك وهو من معاصري السنوسي، وشاركت هذه الأسرة في عدة ثورات كثورة فليته وثورة أولاد سيدي الشيخ وأعتقل فيها الشيخ الشارف عدة مرات، كان آخرها سنة 1876م ويتوفى عام 1890م، واستمر الفرنسيون يلاحقون سنوسية طكوك ويضطهدون مقدميها بسبب توجيهها من الزاوية الأم "بجغبوب" (ليبيا) التي ساهمت في إنماء الوعي الوطني بين الجزائريين في العقدين الأخيرين للقرن 19م. (سعدي، 2013 ص626)

وعمل الفرنسيون كذلك على تحريك بعض الطرق الصوفية في الجنوب ضد نفوذ السنوسية مخوفين إياها بأن السنوسية ستأخذ منها الأتباع وتحرمها من الزيارات والاستقلالية ونحو ذلك من الأساليب، وهذا ما دفع "ديبون وكبولاني" (*Coppolani Dupont*) بالقول إن برنامج السنوسية في الجزائر وتونس يواجهه شيوخ الطريقة التجانية والقادرية في الجنوب. (Coppolani- Depont, 1897 p558).

3.3 القادرية:

وقد حدث للطريقة القادرية هي الأخرى ما حدث لكل الطرق الصوفية في آخر القرن التاسع عشر، فقد أصبحت جميعها تحت رحمة المخابرات الفرنسية والضغط المتعدد الجوانب لكي تعمل وفق إرادة المحتل كما وظفت في عدد من المناسبات عن علم أو جهل من زعمائها، ولا سيما عند حاجة الفرنسيين إلى نفوذ هذه الطرق في الصحراء حين خططوا لاكتشافها واحتلالها وربطها بمستعمراتهم الإفريقية.

وعلى سبيل المثال تذكر المصادر الفرنسية أن مقدم القادرية في ورقلة "محمد الطيب" هو الذي رافق بنفسه بعثة المستكشف الفرنسي "فلامان" (*Flamand*) إلى "تيديلكت" سنة 1899م وقد تعرضت هذه القافلة للهجوم من عرب الصحراء، كما تضيف نفس المصادر أن محمد الطيب قد اعتمد عليه الحاكم العام "جول كامبون" سنة 1895م لتمهيد "تيديلكت" للتأثير الفرنسي وهذا ما يدل من جهة أخرى على ما لهذا الفرع القادري من نفوذ في الصحراء النائية. (سعد الله أ.، 2015 ص 49)

وفي هذا الصدد يذكر الجنرال "لاروك" (*Laroque*) أن للقادرية عدد كبير من الأتباع وعليه ينصح بلاده بالاستفادة من نفوذهم ولا سيما من زاوية عميش بقيادة الشيخ الهاشمي وزاوية الرويسات بقيادة أخيه محمد الطيب، اللذين يصفهما الجنرال "لاروك" على أنهما قدما خدمات جليلة للفرنسيين في الصحراء لما لهما من تأثير في رد الثائرين إلى طريق الهدوء في عدة مناسبات. (سعد الله أ.، 2015 ص 50)

إننا نذكر هذه الأحداث مختصرة لنشير إلى مدى استفادة السلطات الاستعمارية من بعض فروع القادرية على أنها كانت استفادة مؤقتة وكانت لأغراض أنية يستفيد منها الطرفان، وإذا كانت هذه السلطات استفادت من تنافس القادرية والتجانية والوقوف ضد تقدم السنوسية وبقاء العامة مخذرين ببركة الشيوخ، فإن هؤلاء بدورهم قد استفادوا أيضا من نشر نفوذهم وتأكيد تأثيرهم على أتباعهم. (سعد الله أ.، 2015 ص56)

أدرك الفرنسيون خطورة هذه القيادات على وجودهم فركزوا جهودهم على العناصر المتحكمة في هذه المقاومات والفئات القائدة لها، وراحوا يعدون الخطط لإضعافها بل وللقضاء عليها، وبلغت هذه الخطط أوجها بعد ثورة المقراني إذ اكتشفوا أنه لا يمكن ترسيخ الهوية الفرنسية في الشعب الجزائري الذي يقولون بأنه فرنسي وبأن أرضه قطعة من فرنسا إلا بعد تدمير مقومات الهوية الوطنية المؤسسة على العروبة والعربية والإسلام فراحوا يدمرون هذه القيادات واحدة تلو الأخرى، فتوجهوا إلى المرابطين ورسموا خطة لهم لتدجينهم وربطهم بالإدارة الفرنسية.

ومنه رأى علماء علم الاجتماع الفرنسيون أن هذه الإجراءات من شأنها أن ترجع بالفائدة على الإدارة الاستعمارية وكذلك لصالح الهدوء والاستقرار، فقاموا بتشجيع الطرق الصوفية المستقلة ومنح شيوخها سلطات روحية على أتباعهم بشرط أن يكونوا موالين ومخلصين لفرنسا.

وحسب الباحث أبو القاسم سعد الله فقد شهد عقد الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي نموا سريعا في عدد الزوايا والمقدمين والأتباع، وزاد الجهل الذي تولد عن سبعين سنة من الإهمال للتعليم وتدجين العلماء الموظفين من تعميق التخلف العقلي لدى العامة فارتموا في أحضان الطرق الصوفية باعتبارها تمثل الدين وقد بالخلاص بينما ارتمت هي نفسها في أحضان السلطة الفرنسية.

كل هذه التجارب جعلت من الإدارة الاستعمارية تأخذ بعين الاعتبار في سياساتها تجاه الطرق الصوفية سياسة تعتمد على التمكين للطرق الموالية لها والتضييق على التي تناهضها، الأمر الذي حتم على حكومة الاحتلال الفرنسي القيام بدراسات وإحصائيات في هذا الجانب للتعرف أكثر وعن قرب لواقع هذه التنظيمات وفق معطيات ميدانية أقرب نسبيا إلى الحقيقة.

الخاتمة:

إن عدم قدرة الاستعمار على تشخيص عدوه الحقيقي والفعلي جعله يركز اهتمامه على مراقبة هذه الطرق والانشغال بالقضاء عليها تدريجيا باعتبارها مصدر الخطر الحقيقي، ففسحت بذلك المجال لنشأة الأحزاب وتطورها، فما إن حل مطلع العقد الثاني من القرن العشرين حتى أخذت الطرق الصوفية تضعف وتفقد شعبيتها بالمقارنة مع ما كانت عليه في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وفي المقابل كانت الأحزاب والتنظيمات النقابية تتنامى شيئا فشيئا حتى نمت وتطورت، فعملت الإدارة الاستعمارية على تدارك الوضع، لكن يبدو أن ما قامت به جاء متأخرا فلم يجدها نفعا.

ورغم كل مظاهر المرونة والاحترام والتشريف التي أبدتها الاستعمار تجاه الطرق الصوفية في هذه الفترة، إلا أنه قد مارس على هذه الطرق خلال هذه المرحلة عنفا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، استأصل به جزءا هاما من جذورها بالبلاد، فضرب بكل نجاعة استقلاليتها وهدم هيكلها قاعدتها الاجتماعية، وخرب بذلك شرعيتها التاريخية والحضارية وجعل منها مؤسسات طفيلية ومهمشة لا تملك السيطرة على مصيرها، في حين رأينا الحركة الوطنية تستوعب انطلاقا من ثلاثينات القرن العشرين بصفة مكثفة هذه الفئات التي همشها الاستعمار وهمش أطرها الدينية الطرقية، لتستوعمها الحركة الوطنية وتؤطر إيديولوجيا تلك البسيكولوجية العريقة وتوظف ما لدى المجتمع العميق من تقاليد الرفض الاستعماري.

إذن هذه هي حال الطرق الصوفية الكبيرة ذات النفوذ والشهرة في الجزائر خلال نهاية القرن التاسع عشر (19م) ومطلع القرن العشرين (20م)، في حين أن طرق أخرى أصغر مثل الشاذلية والدرقاوية والطيبية عملت السلطات الاستعمارية على تشجيع توجهها نحو الشعوذة والزردة، كما ألهمت روح التفرقة والمنافسة بين الزوايا،

وسميت هذه السياسة (بالصفوف) ولعب ضباط من المكاتب العربية بالجيش الفرنسي دورا كبيرا في الصفوف أبرزهم العقيد "بوجا" (*poujaud*) الذي لعب دورا بناءا في العمارة الملائمة للصحراء وفي حفر الآبار وصارهم رؤساء هذه الزوايا التنافس بين بعضها البعض من أجل كسب رضى المستعمر.

وبغض النظر عن تعامل شيوخ الطرق الصوفية مع الإدارة الاستعمارية إلا أنها عند توقف المقاومة المسلحة استمرت تؤدي دورا إيجابيا في الحفاظ على المقومات الوطنية من تعليم لشؤون الدين والحفاظ على اللغة العربية في وقت ظهرت فيه المدارس الفرنسية التي أوجدت طبقة مفرنسة راحت تؤثر على ثقافة المواطنين بالمدن.

الإحالات والمراجع:

الكتب:

- سعد الله، أ. (1982). محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الاحتلال" (الإصدار ط: 03). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سعد الله، أ. (1996). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (الإصدار ط: 01، المجلد ج: 04). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- سعد الله، أ. (2015). الحركة الوطنية الجزائرية. الجزائر: عالم المعرفة.
- سعد الله، أ. (2015). تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954 (المجلد ج: 04). الجزائر: عالم المعرفة.
- بن عبد القادر، م. (1903). تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (المجلد ج: 01). الإسكندرية: المطبعة التجارية.
- مرسل، أ. (2014). الجزائر في عهد الأمير عبد القادر. (تح: عبد الحميد بورايو وحميد بوحبيب، المترجمون) الجزائر: دار الرائد للكتاب.
- الحسني، ب. (2002). وما بدلوا تبديلا، تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير ودولته (الإصدار ط: 01). دمشق: دار الفكر.
- بورنان، س. (2015). رواد المقاومة الوطنية في القرن التاسع عشر. الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
- سعدي، ع. (2013). الجزائر في التاريخ. الجزائر: شركة دار الأمة.
- عمورة، ع. (2002). الموجز في تاريخ الجزائر. الجزائر: دار ربحانة للنشر والتوزيع.
- ولد خليفة، م. (2007). مؤسسة الزاوية خزان المقاومة وحصن العقيدة والتراث. الجزائر: وزارة المجاهدين-الملتقى الأول والثاني حول دور الزوايا إبان المقاومة والثورة التحريرية.

الأطروحات:

- التلمساني، ب. (1998/1997). الطريقة التجانية وموقفها من الحكم المركزي بالجزائر 1782-1900. مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر. جامعة الجزائر، معهد التاريخ

- دركوش، أ. (2010/2011). مواقف الطرق الصوفية من الاستعمار في الجزائر وتونس (1830-1914م)
القادرية والتجانية أنموذجا. مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر. جامعة الجزائر:
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ.

المقالات:

- كلثوم براني. (ديسمبر، 2016). الاستعمار الفرنسي في الجزائر وإشكالية السلطة بين الديني والسياسي
—قراءة سوسيولوجية. مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، (ع: 11).

بالفرنسية:

- Bessaih, B. (2010). *L'Emir Abdelkader de Louis Philippe à Napoleon III*. Alger: A.N.E.P.
- Coppolani, X. (1897). *Les Confrérie Religieuses Musulmanes*. Alger: Adolphe Jourdan.
- Esterhayz, W. (1840). *Domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger*. paris: librairie Gosselin.
- Napoléon, N. (1890). *Un danger européen, les sociétés secrètes musulmanes*. paris: georges carré, librairie-éditeur.
- Rinn, L. (1891). *Histoire de l'insurrection en Algérie de 1871*. Alger: Librairie Adolphe Jourdan.
- De Neveu, N. (1913). *Les khouan-Ordres religieux chez les musulmans de l'Algérie*, Alger :édité par typographie, Adolphe Jourdan.
- Ben bakeur , C. (1990.) *Un soufi algérien – sidi chekh—*, paris : édition Maisonneuve et harase.
- Arnaud.(1864.) *Siege d'ain-mahdi par el hadj Abd-el-kader ben mohiedine*, in- R.A.N° :48.